ذكرى الهجرة

للأستاذ محمد فريد وجدي

إننا إن ذكرنا هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب في العام الثالث عشر من الرسالة المحمدية، وجب علينا أن نذكر أنها كما كانت فاتحة عهد جديد للدعوة الإسلامية، كانت كذلك مقدمة لقيام أمة عالية، تألفت من طريق الإعجاز على غير السنن الطبيعية، أمة نموذجية لما يجب أن يكون عليه العالم تحت سلطان الأصول الخلقية، والآداب النفسية، لا تحت حوافز الحاجات المادية والضرورات المعاشية.

إن اجتماع القبائل لأجل أن تقوم من مجموعها أمة، ليس بالأمر الشاذ في تاريخ البشر، وإن كان يستدعي مقتضيات كثيرة، وآماداً طويلة، فإن الحاجات الحيوية، والمطالب المادية كثيراً ما تدعو إليه وتحتمه. فالعوامل التي اضطرت الأفراد إلى الاجتماع على هيئة قبيلة لتأمين حياتهم، وضمان معاشهم، هي نفسها التي تضطر تلك الجماعات الصغيرة إلى التآلف والتضامن لتأليف أمة. وإذا كانت هذه العوامل تضطر بعض الحيوانات لتأليف جماعات منها لتتعاون على تذليل العقبات التي تحول بينها وبين ما هي في حاجة ماسة إليه، فلا محل للتعجب من حدوث ذلك في العالم الإنساني، ولكن العجب كل العجب أن تتألف أمة تحت سلطان أصول خلقية، وآداب نفسية، ومبادئ عالية، لم تقم عليها أمة من قبل حتى ولا في عهد الرسالات الدينية في مثل هذه البرهة القصيرة التي تألفت فيها الأمة الإسلامية

ما يتكر عن بينة وفحص وروية وإعمال فكر وإدمان نظر، ثم ينظر في قاعدة أخرى على هذا النحو، وقد ذكر العلماء كثيراً من هذه القواعد كقولهم: «المشقة توجب التيسير»، «الضرر يزال»، «العادة محكمة»، «تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة»، «الخراج بالضمان»، «الوسيلة والمقصد»، «ما يؤثر فيه الغرر وما لا يؤثر»، «اليقين لا يزول بالشك». الخ

وقد دعا إلى هذه الطريقة الفقيه المصري «شهاب الدين احمد بن إدريس القرافي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ» فبث كثيراً من القواعد الفقهية في كتابه «الذخيرة» ثم ألف كتابه الجامع المعروف «بالفروق» وفي مقدمته يقول:

«وهذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف، ويظهر رونق الفقه ويعرف. ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاقت نفسه لذلك وقنطت، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تتناهي، وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب مناها، ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره»

والأستاذ الأكبر المراغي يرى هذه الطريقة واجبة فيقول في مذكرته التي جعلها برنامجه لإصلاح الأزهر منذ سنة ١٩٢٨ ولم ينفذها:

«يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة، والأحكام المجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والبرف وأمزجة الأمم كما كان يفعل السلف من الفقهاء»

وإني في مطلع هذا العام المبارك أسأل الله أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا، وأن يوفق الأزهر الذي هو حصن الدين والعلم والفقه إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين

محمد فريد وجدي

إن كل العوامل التى عملت لتأليف الأمة الإسلامية ، ليست من جنس العوامل التى دفعت لتأليف الجماعات البشرية ، فقد جرت السنة الطبيعية فى تآلف الجماعات العظيمة ، أن تنتدب قبيلة كبيرة تحت قيادة زعيم معترف به ، لدعوة القبائل المجاورة تحت حافز قوى من مطلب أو مطالب مسلم بضرورتها لدى الكافة للقيام بتحقيقها ، فتحدث أولاً بينها اتفاقات جزئية مع حفظ كل منها لاستقلالها الذاتى ، ثم تأخذ هذه الاتفاقات فى التطور تحت تأثير الحوادث الاجتماعية ، فتسقط موجبات التخالف بين هـذه الجماعات الجزئية شيئاً فشيئاً حتى ينتهى الأمر باندماج بعضها فى بعض ، بعد مرور آماد طويلة .

ولـكن الأمة الإسلامية قامت على غير هذه السنة الطبيعية فبدأت بدعوة رجل واحد إلى عقائد ومبادىء غير مسلم بها من الـكافة ، بل كان قومه وعشيرته الأقربون أشد معاداة لها من غيرهم ، وتبعه أفراد منهم لا يغنون عنه ولا عن أنفسهم شيئاً . ثم اتفق أن تأثر بدعوته أفراد من قبيلتين فى مواطن بعيدة عن موطنه ، تولوا دعوة ذويهم فقبلها كثيرون منهم . وهنا يجب أن يعلم أن العرب الجاهليين لم يكونوا يأبهون بتمحيص العقائد ، ولم يعتادوا أن يقتبسوا شيئاً من غيرهم ، بل كانوا يأنفون أن يخضعوا لزعيم من غير قبائلهم ، بله أن يعينوه على قومه ويستجلبوا بذلك على أنفسهم عداوة قبيل ليس بينهم وبينه ثأر قديم ، ولا سخائم موروثة

فلما هاجر النبى إلى موطن هؤلاء الذين قبلوا الدخول فى دينه ، احتفلوا به أيما احتفال ، وخولوه الزعامة عليهم ، وعاهدوه على أن يحموا دعوته ويناضلوا عنها بأموالهم وأنفسهم . وانتشر الإسلام فى تينك القبيلتين يثرب وهما بنو الأوس وبنو الخزرج ، حتى لم يبق بيت فيهم لم يصبأ أهله اليه

تطور غريب لم يعد له شبيه فى عالم الاجتماع البشرى : جماعتان كانتا بالأمس على الوثنية تقبلان ديناً ليس بين دينهما وبينه أقل شبه ، ومناقض لما نشأنا عليه كل المناقضة . وليس ذلك فحسب ، بل يدعو إلى أصول ومبادىء كان يمقتها العرب قاطبة ، ولا تتفق وما طبعوا عليه ، وأشربوه من العصبية الجاهلية ، كمبدأ التوحيد فى العقيدة ، ومبدأ المساواة بين الأجناس البشرية ، ونبذ التفاخر بالآباء ، والمباهاة بالمفاخرات الحربية ، ويصرفها إلى العمل على تطهير القلوب بالمجاهدات النفسية !

هذا تطور عجيب فى ذاته ، وأعجب منه أن يكون فى بيئة كل ما فيها يدعو إلى التعويل على الوسائل المادية ، والإخلاد إلى الحياة الأرضية ، وأدهى للعجب منهما أن يتم ذلك التطور طفرة ، وهو لا ينشأ عادة إلا بعد تطورات متوالية ، وظروف مواتية

قلنا فى مقدمة هذه المقالة أن تأليف هذه الجماعة كان مقدمة لقيام أمة عالية جعلت نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الأمم ، بعد أن تبلغ من التطور حداً يسمح لها أن تقوم على مثل ما قامت عليه من الأصول الأدبية ، والمبادىء الخلقية . فإذا صح ما يقال من أن الحياة الإنسانية أصبحت فى حاجة إلى مقومات اجتماعية غير التى تقوم عليها اليوم ، تتفق ومقررات العلم ، وتتلاءم وما هدى إليه البشر من الأصول الإنسانية ، بحيث تبطل بالقيام عليها الحروب ، ويتم بينها التعاون على توفير الخير لجميع الشعوب ، فلا سبيل إلى ذلك إلا باستبدالها الأصول الأدبية ، والمبادىء الخلقية ، بالأصول المادية البحتة التى تقوم عليها . وقد آنسنا فى غضون هذه الحرب العالمية المستمرة أن التفكير أخذ يتجه صوب هذا التطور العظيم ، بإقامة الصلح على قواعد إنسانية تسمح لكل شعب أن ينال حظه من المواد الأولية ، وأن يعيش على قدم المساواة مع غيره من سائر الشعوب الأرضية . وهذه من مبادىء الدولة النموذجية التى كانت الهجرة النبوية فاتحة لإقامتها

فإذا احتفل المسلمون بيوم الهجرة وجب أن يذكروا معها أن هذا اليوم كان بدء إقامة الدولة الإسلامية التى بلغت من امتداد السلطان ، ورونق المدنية ، وزعامة العلم والسياسة إلى ما لم تبلغه أمة قبلها ، وشيدت للمبادىء الإنسانية صرحاً لن يزال قائماً ما دامت الحياة الأرضية .

محمد فريد وجدى